

وصية الإمام الذهبي
لمحمد بن رافع السلامي

هذه وصية الشيخ الإمام العالم الحافظ البارع أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المقرئ رحمه الله تعالى،
محمد بن أبي الفضل رافع بن أبي محمد بن محمد السلامي:

يا وليد رافع! اسمع أقل لك: أراك -والله- مثلي؛ مُزجى البضاعة، قليل العلم بالصناعة، فلا أقل من الإقبال
على الطاعة، ولزوم خمسك في جماعة.

وهل شيء أقبح من شائب يخدم السنة ولا يعمل بها؟! نعم؛ آخر يُبائع في الطلب، ويكتب عمّن درج ودبّ،
ثم لا يُصلي! فلا بارك الله في هذا النمط! فإن هؤلاء ما غوايتهم بالحديث إلا كغواية المصارع والساعي ولاعب الحمام،
بل أولاء أعذر بالجهل.

وهذا المعترّ يسمع الألف من الحديث فيها الوعيد والتهديد، والعذاب الشديد، ولا ينزجر، بل ما أظنه
يسمع شيئاً، ولا يفهم حديثاً؛ لأنه إن كان قارئاً بنفسه فبحهده أن يتهجى الأسماء والمتون، ويُبدّل ما يشير إليه، وعينه
إلى تنبيه الشيخ تارة، وإلى أمرّد حاضر تارة، وإلى إقامة الإعراب تارة؛ لئلا يُجزى بين الحاضرين، وإن كان غيره القارئ
استراح، فأنا كفيّل لك بأنّه ما يسمع غير: «ثنا، قال: ثنا»، و«صلى الله عليه وسلم»؛ لكثرة دور ذلك.

فتراه إمّا يكتب الأسماء حال السماع؛ فيبطل ويُبطل، أو ينسخ في جزء، أو يكتب طباقاً، أو يطالع في شيء،
وهذا أجود أحواله -ولا جودة فيها- أو بمكان -وهذا الأغلب- يُحدّث جليسه، ويُخرج مع الصبيان الملاح؛ فمتى يسمع
هذا أو يعقل أو يبصر أو يُغني عنه الحديث شيئاً؟!

وأما قول وكيع: «إن هذا الحديث يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متهون؟!»؛ فهذا قاله في الصلاة
المقارنة للذكر، وهي التوافل؛ أي: يُقلّل تشاغلکم بالتوافل؛ فانتهاوا عن ذلك.

أما أن يصدّهم عن الفرائض الخمس؛ فحاشا لله! هذا ما كان في سيرهم قط؛ إلا في أيام الجهاد وقبلها بمدّة.
وهل يترك الصلاة مُحَدّث إلا وهو من الرذالة الرُبالة، أو إلى التعرّ والضلالة!

فإن كمل نفسه بتلوّط أو قيادة؛ فقد تمت له الإفادة، وإن استعمل من العلوم قسطاً، فقد ازداد مهانةً وخبطاً،
وبدّل دينه لشيطانه، وأدبر عن الخير؛ فهل في مثل هذا الضرب خير؟ لا كثر الله مثلهم، فما حظ الواحد من هؤلاء
إلا أن يسمع ليروي فقط.

فليعاقب بنقيض قصده، وليشهرته الله تعالى بعد أن ستره مرّات، وليبقي مضعّة في الألسن، وعبرة بين الحداثين،
ثم ليطبّع الله على قلبه، وربما سلب التوحيد، وطمع فيه الشيطان؛ فدخل في باطنه الخراب، وشكّكه في الإسلام
والنبوّات إلى أن يخسر الدنيا والآخرة؛ نسأل الله العفو والسّتر.

فبالله يا أخي ثم بالله؛ اتق الله في نفسك المسكينة، ولا تكن ممن أدخله طلب الحديث النار؛ فما ارتفع رافع
إلا بالتقوى، والخير، وملازمة الآداب النبويّة.

فإن قبّلت نُصحي؛ فما أولاك بالخير والتّوقير، وإن أعرضت كإعراضك عن وصية الإله العظيم، فتباً لك سائر
الدهر؛ فإن الله يقول -وهو أصدق من قال، وأرحم من أمر، وأعلم من أوحى، وأكرم من هدى، وهو أشفق علينا من
أنفسنا-: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ الآية [النساء: ١٣١].

فبالله؛ قل لي: هل يكون طالب من خدام السنة يتهاون بالصلوات، أو يتعاني تلك القاذورات؟ لا والله،
ولا هو ممن اتقى الله.

وأحسن من ذلك كَلّه محدّث يكذب في حديثه، ويختلق الفُشارات، فإن ترقت همته المقيتة إلى الكذب في النقل،
والتزوير في الطباق، فقد استراح، وطرس الطلبة على اسمه ورسمه: صورة ومعنى.

وإن تعانى سرقة الأجزاء، أو كشط الأوقاف، فهذا لصٌ بسّمْتِ مُحَدّثٍ، وإن جعل الطلب له مأكله ودكّاناً؛
فالأعمال بالنيّات، ولا قوّة إلا بالله.

فأقرأ كتابك كفى بنفسك عليك حسيباً، وأعوذ بالله أن أكون قد ضيعت الرّمان في نعت بطلة الطلبة،
أبلاهم الله بالعلبة.

فافتح عينك، وأحضر ذهنك، وأرغني سمعك، فإن انتفعت وعقدت مع الله عقداً؛ فقد توسّمت فيك الخير،
وإن شردت وركبت الإعراض والكسل مثلي، فواحسرتا عليّ وعليك.

فثمة طريق قد بقي لا أكتمه عنك؛ وهو كثرة الدّعاء، والاستعانة بالله العظيم في آناء الليل والنهار، وكثرة الإلحاح
على مولاك بكلّ دعاءٍ ماثورٍ تستحضره أو غير ماثورٍ، وعقيب الخمس، في أن يُصلحك ويُوفّقك.

والزم -ولا بُدّ- آية الكرسيّ في دُبر الصلوات المفروضة، وأكثر الاستغفار والأذكار، والزم الصّدق المفرط عن
كلّ بدّ في كلّ شيء، ولا تستكبر، ولا تكن ممن يستكبر بما علم، فإنك جاهلٌ حبل.

فداوم -بالله- على التّواضع الرّائد، والمسكنة للمسلمين إلا الفاسقين منهم، وأحبّ الله، وأبغض في الله،
وثق بالله، وتوكل على الله، وأنزل ضرورتك بالله، ولا تستغن إلا بالله، وأكثر من: «لا حول ولا قوّة إلا بالله»،
ومن الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا دائماً أبداً.

انتهت الوصية